

## ملخص البحث :

يهدف موضوع هذا البحث إلى دراسة الحرف اليدوية لدى النساء الحسانيات بمنطقة وادي نون دراسة علمية. يتناول من خلاله الباحث، موضوع المرأة الصحراوية التي تفتنت في العديد من الحرف الخاصة بمجتمع الصحراء، وذلك من خلال مجموعة من الآلات والأدوات والمواد المتوفرة بالبيئة المحيطة. إن عمل المرأة البيضانية كان بهدف الحصول على لقمة العيش أو مساعدة زوجها في تدبير الشؤون المنزلية والحياتية وأحيانا بهدف محاربة الفراغ الموجود بمحيطها خصوصا إذا علمنا أن أغلب هؤلاء النساء غير متعلّقات. وستكشف هذه الدراسة للباحثين عن عناصر إبداعية وحرفية وأدوات و مواد بناء، كخاصية للمنطقة، كما أنها محاولة للخروج بتصور عن الجانب اليدوي الذي امتاز بصناعته المجتمع الحساني، وهو موضوع لم يطرق بعد من قبل الباحثين رغم أهميته.

من هنا برزت أهمية البحث، والتي تتبع من الأهمية الكبرى التي أعطيت للحرفة في حد ذاتها خلال الآونة الأخيرة من طرف السلطات والتي تعمل على إدماج هذا النشاط بصفة حيوية وأكثر وضوحا في التنمية الاقتصادية. و تكمن أهمية هذا الموضوع في كونه يعد موضوعا ذا أهمية كبرى.

إضافة إلى إبراز الآثار الإيجابية لهذا الحرفة على الاقتصاد سواء من ناحية تدفق رؤوس الأموال والتخفيف من معدل البطالة ورفع الاستثمار.

وبطبيعة الحال فمشروع البحث الذي بين أيدينا يعرف بالهوية الثقافية الصحراوية المغربية التي سوف تفتح مجالا لأبناء مناطق الصحراء بالتعرف على ثقافتهم العريقة والجمع بين الأصالة والمعاصرة ، كما في الوقت ذاته سوف يتيح للباحث في المجال الثقافي على العمل على إغنائها وجعلها موضوعا ومادة قابلة للتحليل و النقد البناء.

أما في ما يتعلق بتحديد الإطار المكاني للدراسة، فهي منطقة وادي نون التي تشمل بوابة الصحراء "مدينة كلميم"، التي تقدر مساحتها بحوالي 10788 كيلومتر مربع أي ما يناهز 7,55% من إجمالي المساحة الإجمالية للجهة، كما يضم هذا الإقليم تسع

جماعات قروية من أصل 18 جماعة قروية المكونة لعمالة إقليم كلميم. أما في ما يخص الموقع الجغرافي فأقليم كلميم يحدد من (1):

الشمال ← إقليم تيزنيت

الجنوب ← إقليم طانطان وإقليم أسالزك

الشرق ← إقليم طاطا

الغرب ← إقليم سيدي إفني والمحيط الأطلسي

أما الإطار الزمني للمنطقة فقد قادنا إلى ما عرفته المنطقة من تحولات وتغيرات، حيث كانت مركزا للرعي يطلق عليه وادي النوق (2) ، ولعل هذا يحيل إلى أن المنطقة كانت مرتعا خصبا للرعي الإبل، خاصة عاصمة المنطقة كلميم حاليا باعتبارها من أكبر الأسواق الخاصة بتجارة الإبل في الصحراء الكبرى(3)، ثم مراحل الاستعمار وما خلفه من تغيرات مست الثقافة المتواجدة بالمنطقة.

#### أهداف الدراسة:

تتمحور الأهداف المتوخاة من هذه الدراسة في النقاط الآتية:

✓ دراسة التراث الحرفي التقليدي النسائي دراسة علمية باعتباره أحد المكونات الأساسية للهوية الثقافية بالمغرب، ويتحقق ذلك من خلال الرفع من قيمتها وإعطائها المكانة التي تسعى إليها.

✓ التعريف بالتراث الحرفي النسائي الحساني والصناعة التقليدية و الهوية والمجتمع الصحراوي باعتباره مجتمع له مكونات وخصوصيات.

✓ توثيق الموروث الصحراوي المحلي خصوصا الحرف اليدوية منها وفق قيم ومعايير ثقافية وطنية تضمن الاستمرار و الدوام لهذه الثقافة.

✓ الاهتمام بوضعية المرأة الصحراوية والعمل على تكوينها للمشاركة في التنمية.

✓ العمل على تكريس التبادل بين مختلف المكونات الثقافية و الجمع بين الأصالة والمعاصرة في الموروث الثقافي والتعامل الإيجابي مع الثقافة الشعبية.

<sup>1</sup>-الحوار الوطني حول إعداد التراب لجهة كلميم السمارة لسنة 2010.

<sup>2</sup>-F. de la Chapelle : " les Tekna de Sud Ouest Marocain dans: bulletin de l'Afrique Francaise", 1934, P. 47.

<sup>3</sup>-سوق أمحيريش: يرمز للدور الإقتصادي الذي تلعبه عاصمة منطقة واد نون عبر التاريخ حيث أنه كان ملتقا لتجار الأقطار المجاورة للمغرب: الجزائر، موريطانيا ومالي.

تطرح الدراسة إشكالية أساسية حاولنا الإجابة عنها وتتمثل: مدى قدرة الحرف اليدوية النسوية على الاستمرارية والحفاظ على أصالتها في ظل التغيرات الثقافية والصناعية وغيرها؟ وعموما تمثل الإشكالية الإجابة عن عدة تساؤلات جزئية مرتبطة أساسا في تحديد أنواع الحرف اليدوية التي تفننت المرأة الحسانية في إبداعها بالمنطقة، وأدوات ومواد ومراحل البناء، حيث كان للطبيعة ومجالها الجغرافي دور في إعطائها خصوصية، كما عملنا على إبراز مختلف العناصر اليدوية النسائية لمنطقة وادي نون، وتوضيح الدور الذي لعبته، ومعرفة علاقتها بالبيئة المحيطة بها سواء من حيث مواد وتقنية وأدوات البناء، أو الدور الذي لعبه الموقع الجغرافي.

وقد شكلت الدراسة الميدانية قطب البحث بل جلّه، إذ تطلب العمل الحرفي الميداني مني سنتين ونصف تقريبا، تجمعت لدي خلالها معطيات حرفية متنوعة و موزعة على مجال جغرافي صعب التضاريس طوبوغرافياً، تدرس بمقاربة علمية لأول مرة. هذا على مستوى الدراسة الميدانية.

أما على مستوى المرجعية المصدرية فقد واجهتنا مجموعة من العراقيل والصعوبات أثناء جمع المعطيات الميدانية ولعل من أبرزها:

لاعتقد المساطر الإدارية لولوج بعض المكتبات الجامعية، وعدم السماح لنا بنسخ بعض الأطروحات والبحوث الجامعية التي يمكن أن نستفيد منها.

لكذلك من الإكراهات والمثبطات التي واجهتني أثناء مرحلة العمل الميداني عدم وجود إحصائيات رسمية دقيقة لعدد الصناعات التقليدية بمنطقة الدراسة، ويعود السبب في ذلك إلى أن الصناعة التقليدية في المجتمع الحساني الذي انتقل من مجتمع بدوي إلى مجتمع مستقر أثر على البنية الاجتماعية له. ومن ثم اختلت الوظائف والأدوار الاجتماعية لأفراده وهو ما أدى إلى تراجع حضور الصناعة التقليدية في المجتمع الحساني، الذي صار يقتصر على إنتاج بعض الأدوات والمواد التي لازالت تستعمل في بعض المناسبات الخاصة

كالزفاف. ورغم إتجاه الدولة من خلال المؤسسات التي تشتغل في مجال التراث كمنذوبية الصناعة التقليدية إلى تشجيع الصناعات التقليدية للانخراط في التعاونيات الحرفية وإعداد برامج تكوينية لفائدتهم، إلا أنه لازالت تسير هذه الجهود بشكل بطيء وهو ما وضعني أمام إكراه اقتصادي على مقابلة عدد معين من الصناعات التقليدية الذي لم يتجاوز خمسون صانعة ممن توفرت فيهم الشروط التي حددتها كأساس لإجراء المقابلة.

لوقد ظلت الصعوبة الأكبر تتمثل في ندرة المصادر والمراجع المكتوبة والمتداولة عن الموضوع، فلا يزال الاهتمام به نشاطا شفويا بامتياز؛ مما يضع الباحث أمام فضاء ميداني مترام، وفي مواجهة اجتهادات وآراء متعددة، بل ومتضاربة في كثير من الأحيان. وبالرغم من كل هذا، فقد مكنتني هذه المواد المصدرية العلمية المجمعة لدي من هيكله موضوعي بشكل يتناسب مع الأهداف المتوخاه من هذه الدراسة، ومن ثم ولإحاطة بالجوانب المختلف لدراسة الحرف اليدوية النسائية بالمجتمع الحساني: منطقة وادي نون \_أنموذجا\_، فقد قسمت هذه الدراسة إلى بابين:

**الباب الأول:** عبارة عن تقديم عام للبحث، وقد قسمته إلى ستة فصول، كل فصل يفتح بتقديم وينتهي بخلاصة.

**الفصل الأول:** عبارة عن توطئة منهجية تطرقت فيها إلى التعريف بالموضوع وطرح الإشكالية والفرضيات المصاحبة لها وأهداف البحث ودوافعه، وحدود الدراسة ومنهجها وعينة البحث وتقنيات وأدوات البحث لجمع المعطيات الميدانية ثم الدراسات السابقة التي تناولت الموضوع.

**الفصل الثاني:** خصصته للحديث عن "الحقل الدلالي لصناعة المعجم"، حيث تم تحديد المفاهيم التالية: "المعجم"، "أنواعه"، "علم الدلالة"، "الحقول الدلالية"، "نظريات الحقول الدلالية عند العرب" و "نظريات الحقول الدلالية عند الغربيين".

**الفصل الثالث:** تناولت فيه الحقل التصوري لصناعة التقليدية: "الصناعة لغة واصطلاحاً"، "الحرفة"، "الصناعة التقليدية"، "نظرة المجتمع للحرفة أو الصناعة في العصر الجاهلي"، "نظرة الإسلام إلى الحرفة والصناعة"، "والحرف والصناعة بالمغرب"، لنتتهي بالحديث عن "الحرف اليدوية في المجتمع الحساني" وأهميتها من خلال مجموعة أمثال.

**الفصل الرابع:** يتمحور حول "التراث الثقافي الحساني: العناصر والمكونات"، حيث تناولت فيه: مفهوم "التراث" و"التراث الشعبي"، الشيء الذي فتح لنا المجال للحديث عن "الحياة الثقافية للمجتمع الحساني": مفهوم الثقافة الحسانية، تاريخها، وبنية المجتمع الصحراوي من محاربين وزاوياء وحرفيين "لمعلمين" "الصناع"، وبعد ذلك عناصر ومكونات الثقافة الحسانية من اللهجة الحسانية، والعادات، الأمثال، الألغاز، الإبداعات الفنية، الطرب الحساني، الألعاب الشعبية، الدين ثم الفنون التقليدية الحسانية.

**الفصل الخامس:** وهو الفصل الذي خصصته للحديث عن "المعطيات الطبيعية لمجال الدراسة منطقة واد نون"، ومن خلاله تم التطرق إلى: موقع منطقة البحث، والمعطيات الطبيعية، والبشرية والتقسيم الإداري لمجال الدراسة.

**الفصل السادس:** يتمحور حول المعطيات التاريخية لمجال الدراسة "كلميم كعاصمة لواد نون"، وتم الحديث عن تسمية "واد نون" في التاريخ القديم، وساكنته، والتعريف ب"تكنة" ومكوناتها وخصائصها، ثم التنظيمات الاجتماعية بمنطقة واد نون (الزعيم القبلي، الجماعة وأيت أربعين)(4).

**الباب الثاني:** يتمحور في شموليته حول الحقول الدلالية لمفردات الحرف اليدوية بمنطقة وادي نون: الحرف اليدوية النسائية الحسانية\_أنموذجا\_؛ وقد قسمته إلى سبعة فصول، كل فصل يبتدئ بتقديم وينتهي بخلاصة.

**الفصل الأول:** تطرقت فيه إلى الحديث عن المفردات الدالة على صناعة الخيمة، وتناولت فيه: مفهوم الخيمة وتاريخها ودورها السوسيوثقافي ووظيفتها، مفردات أدوات صناعة الخيمة ومكوناتها والمفردات التي تدخل في بناء الخيمة ومراحلها؛

**الفصل الثاني:** جاء عنوانه كالتالي: المفردات الدالة على صناعة الجلد، وتم الحديث عن البعد التاريخي للصناعة الجلدية وطريقة صناعة الجلد بالصحراء، ثم المواد الأولية المستعملة في هذه الصناعة، ومفردات الأدوات المستخدمة إضافة إلى المنتجات الجلدية بالصحراء؛

**الفصل الثالث:** تناولت فيه المفردات الدالة على صناعة الحصير، تاريخ هذه الصناعة، وظائف السمار، والمواد المستخدمة في صناعة الحصير والمنتجات؛

<sup>4</sup>-ستجدون فيما يأتي من صفحات هذا البحث شروحات للمفاهيم المتداولة فيه

**الفصل الرابع:** خصصته للحديث عن المفردات الدالة على صناعة الزرابي، وتناولت

فيه مفردات أدوات صناعة الزرابي، مفردات المواد ثم مفردات المنتجات؛

**الفصل الخامس:** يتمحور حول المفردات الدالة على صناعة الضفيرة، وتناولت فيه

مفردات الأدوات، ومفردات المواد ثم مفردات منتجات صناعة الضفيرة؛

**الفصل السادس:** خصصته للحديث عن المفردات الدالة على صناعة الحلي والزي

الصحراوي، وتناولت من خلاله صناعة الحلي بالمجتمع الحساني، المواد الأولية، المفردات

الدالة على وسائل وأدوات الزينة عند نساء الصحراء، مفردات حلي الرقبة، ومفردات حلي

اليدين، مفردات حلي الأرجل، ومفردات حلي الأذنين، ثم تطرقت إلى ملحفة النيل باعتبارها

رمز الجمال والزينة.

**الفصل السابع:** خصصته للحديث عن صناعة الحناء، البخور و"الرشوش"، وتطرقت

من خلال ذلك إلى الحديث عن: الحناء من منظور تاريخي، الحناء بالمجتمع الحساني،

مفردات الأدوات، لمعلمة ودورها في عملية "التبلاخ"، ثم المفردات الدالة على صناعة

البخور، مفردات المواد، الأدوات والمنتجات.

ثم ختمت عملي بخاتمة ضمّنتها أهم النتائج والخلاصات التي توصلت إليها في هذا

البحث، ثم قائمة بأسماء المصادر والمراجع . وقد ذيلت الدراسة بملحق ينقسم إلى ثلاثة

أقسام: يتعلق الأول بالجداول. والثاني: بالخرائط، الوثائق والصور. والثالث والأخير

بالمصطلحات المحلية.

**أما فيما يتعلق بالمنهج المتبع في هذه الدراسة:**

فقد اعتمدت في دراسة الحرف اليدوية لدى النساء الحسانيات بمنطقة وادي نون

على: المنهج الوصفي باعتباره هو المنهج الذي يهتم برصد الواقع ووصف الظاهرة كما

حدثت في الواقع الفعلي لها أي يقوم على وصف ما هو كائن وتفسيره، والبحث وفق المنهج

الوصفي لا يقتصر على جمع البيانات وتبويبها بل يتضمن قدرا من التفسير والتحليل لهذه

البيانات. إضافة إلى المنهج التاريخي الذي يتجلى في تتبع ظواهر تاريخية انعكست من

خلال أحداث ووقائع مثبتة في التاريخ ومسجلة في المصادر التاريخية للتعرف على جزئياتها

ثم تحليلها لمعرفة مدى تناسقها مع حركة التاريخ، فمهما كان الشكل الذي يتخذه البحث

التاريخي فهو في مضمونه بحث في الماضي والتعمق فيه ومعرفة الحقائق العلمية المرتبطة

به وتفسيرها بهدف فهم ومعرفة الماضي من جهة ومحاولة لصياغة الحاضر والمستقبل على ضوء التجارب التاريخية من جهة أخرى.

كما اعتمدنا على التصوير الفوتوغرافي، وإعداد الخرائط، وعمل الجداول والبيانات، معتمداً في كل ذلك على المنهج التاريخي الوصفي التحليلي. فالمنهج التحليلي باعتباره منهجا مناسباً لتحليل ومقاربة إشكالية البحث الذي يعتمد على تحليل ومقاربة بين الثقافات المختلفة الأخرى التي تناولت الحرف التقليدية الصحراوية أو غيرها.

### أهم النتائج التي توصلت إليها الدراسة: تتلخص في النقاط الآتية:

**أولاً:** تتميز منطقة وادي نون بمجموعة من الحرف التقليدية الأصيلة التي تعكس ترسبات حضارية وثقافية تنوعت بتنوع المحيط والبيئة، وتطورت عبر العصور، إلا أنها ظلت محافظة ضمناً على مقوماتها الأساسية، وظلت الصانعة التقليدية بالإضافة إلى زوجها العامل الأساسي في حيك هذا الموروث الثقافي والحفاظ عليه، وبالتالي الاعتماد عليها في تلبية حاجيات السكان خصوصاً الرحل، وذلك بإنتاج أدوات تتلاءم مع حياة البداوة والترحال اليومية مما يبدو جلياً في مختلف إبداعاتها، فنلمس ارتباطاً بين القديم والحديث، والماضي والحاضر رغم التحولات العميقة في نمط عيشها جراء استقرار الرحل وتغير السلوك الإستهلاكي.

**ثانياً:** يمكننا القول أن "المعلمة" إلى جانب "المعلم" هما اللذان عملاً ولازلاً على الحفاظ على الذاكرة الحية لهذا المجتمع للحفاظ على جانب يعتبر جوهرياً من مرتكزات رموزه الثقافية من خلال ما يصنعانه من أدوات ومنتجات جد بسيطة مستوحاة من البيئة الصحراوية. وفي هذا الإطار، فمن الواجب أن نشكر العائلات الحرفية البيضاوية التي حافظت على أسرار الأجداد وساهمت في حفظ جزء هام من تاريخ وهوية هذا المجتمع.

**ثالثاً:** تختزل منتجات "المعلمات" و"المعلمين" ذاكرة مجتمع الصحراء، وتعكس وسائل الحياة والمعيشة قديماً، كما أنها لا تخلو من لمسات "الصانع" الفنان. (يمكن الرجوع إلى الجدول الذي يشير إلى أعرق العائلات الحرفية بمنطقة الدراسة وبالصحراء المغربية عموماً، إلى جانب بعض أسماء وألقاب الصانع بالمجتمع الحساني، كما يظهر ذلك الجدولين رقم 05 و06 ص:393 وص 394).

إجمالاً كان عملنا مدفوعاً بحماس زائد بدافع الغيرة على التراث المحلي بكل تجلياته، رغم محدودية آليات البحث العلمي الرصين المتاحة، إضافة إلى بعض معوقات البحث الميداني التي سبقت الإشارة إليها، إلا أننا مع ذلك توصلنا فيه إلى مجموعة نتائج وخلصات يمكن إنجازها حسب فصول ومحاوّر هذا العمل فيما يلي:

لأهمية إيلاء عناية خاصة بالتراث الشفوي عبر تخصيص فرق بحث متخصصة من المهتمين بالتاريخ والأنثروبولوجيا وغيرها، وتدوين القدر الكافي من الرواية الشفوية، ومن ثم دراسة هذا التراث دراسة علمية، تفضي إلى نتائج تزيل اللثام عن الكثير من تفاصيل هذا الموروث الأيل إلى الزوال، إذا لم يلق العناية الضرورية.

لأخلق متحف خاص للصناعة التقليدية، وجمع المصنوعات القديمة والعناية بها، والتعريف بإنتاج الأجيال السابقة، كشكل من أشكال حفظ الذاكرة الجماعية للمنطقة.

والعناية بالنقطتين أعلاه، من شأنه الرفع إلى خلق عناية خاصة بالسياحة الثقافية، التي بدأت كموجة جديدة ينبغي الالتفات إليها لتكون رافعة لتنمية في مجال الدراسة.